٤٧ أبو السعود بن أبى العشائر عراقى يدافع عن مصر

لعل سيرة حياة الرجل الصالح أبى السعود بن أبى العشائر تؤكد بصورة أو بأخرى جملة من الحقائق التى فى مقدمتها أن العالم العربى توحدت أجزاؤه منذ ظهور الدعوة المحمدية فى شبه الجزيرة العربية، حتى أصبح هذا العالم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. وأن هذا التوحد قائم ـ برغم ما يحدث من انقسامات سياسية ـ ما قام لهذا العالم دين واحد، ولغة واحدة، ومصالح مشتركة، وإلا فما معنى أن نرى هذا الرجل الصوفى الصالح «أبا السعود بن أبى العشائر» المنصرف تماماً إلى عبادة ربه، صياماً وقياماً، تفكراً وتأملاً، يترك بلدته «باذبين» فى العراق قاصداً دمياط بمصر، ليقف بين صفوف أبنائها مجاهداً ضد قوى البغى والعدوان بكل ما أوتى من حول وقوة، غير عابئ بما يربطه ببلده بالعراق من ارتباطات، كل ما يهمه أن ينصر أخاه فى الدين واللغة والمصلحة المشتركة ضد هؤلاء الذين أتوا إليه من الغرب الأوربى للقضاء عليه... لو لم يكن هذا الرجل الصالح يدرك تماماً أن ما يصيب مصر تتأثر له الأمة العربية كلها حتى فى أطرافها المتباعدة.

يُضاف إلى هذه الحقيقة أمر آخر، لعله يتصل بسلوكيات رجل التصوف الحقيقى، المستمد من سلوكيات رجال الصوفية الأوائل الذين كانوا يرفضون أن تكون الصوفية انصرافاً كلياً عن الحياة بكل ما فيها، أو رفضاً بكل ما يتعلق بها من مسئوليات والتزامات تفرضها بالضرورة طبيعة الحياة نفسها، الدائمة التجدد والتغير، لا أن يعتزل الناس ويعيش فى خلوة معتمداً على غيره فى طعامه وشرابه، ومحاطاً بالدراويش والمهاويس الذين يعيشون أيضاً عالة على غيرهم، ظناً منهم أن

هذا هو الطريق الصحيح للصوفية! وغير ذلك من صور خاطئة تسئ إلى الصوفية ورجالها الأوائل أكبر إساءة.. هؤلاء الرجال الصالحون الذين رأوا أن التصوف عمل بغير توقف، وجهد بغير كلل إلى جانب أنه عبادة وتأمل، لا يصرف أحد المنتمين إليه عن الاعتماد على نفسه، والاستكفاء بعمل يده، وإلا فما معني أن يخرج هذا الرجل الصوفى الصالح أبو السعود بن أبى العشائر فى كوكبة من أتباعه ومريديه لينضم إلى صفوف المجاهدين فى بلد غير بلده؟ ويقطع آلاف الأميال والفراسخ إلا لإيمانه بأن صوفيته لا تمنعه عن مزاولة ألوان الحياة، ومنها الدفاع عن بلد يربطه به رباط الدين واللغة والمصالح المشتركة.

يضاف إلى هاتين الحقيقتين الباهرتين. أن مصر خاصة كانت منذ مئات السنين - كما هى اليوم - قلب العروبة النابض، وأن ما يصيب هذا القلب من أذى يشل بصورة أو بأخرى بقية بلدان هذه الأمة العربية... وإلا فما معنى أن ينهض هذا الرجل الصوفى الصالح من إحدى قرى العراق النائية ملبياً نداء الدفاع عن مصر وأين؟ فى دمياط. لو لـم يعِ حتى بصـورة خام أو حينينة أن مصـر تمثل هذا القلب النابض لهذه الأمة التى يراد لها الانقسام منذ أن كانت خير أمة أخرجت للناس.

هذا الرجل الصالح أبو السعود بن أبى العشائر الباذبينى القادم من العراق ليدفن عام ٦٤٤ هـ بسفح المقطم فى القاهرة بمصر بالقرب من من مدفن ابن عطاء الله السكندرى، ولد ببلدة باذبين القريبة من مدينة واسط بالعراق وجاء مصر فى عهد الملك الكامل بن الملك العادل الأيوبى. فى وقت كانت جيوش الصليبيين تدق أبواب مصر.

وفى ذلك يسجل الذهبى فى تاريخه أن جيوش الفرنجة جاءت إلى ثغر دمياط فى مائتى مركب محملة بالجنود والعتاد، ونادى الملك الكامل فى القاهرة بأن النفير عام، «أى التعبئة العامة» معلناً الجهاد فى بلاد الإسلام، لذلك لم ير الشيخ أبو السعود بن أبى العشائر بُداً من التوجه إلى مصر والانخراط فى صفوف المجاهدين.

وتذكر المصادر التاريخية أن الشيخ أبا السعود قد أبلَى بلاءً حسناً فى المعارك التى دارت بين المجاهدين من مصر والمعتدين من الفرنجة. وإن لم تذكر بعض هذه المصادر التاريخية الدور الذى قام به الشيخ أبو السعود على وجه التحديد، غير أن البعض الآخر من المصادر ـ وخاصة الحديثة ـ تحديد هذا الدور اعتماداً على ما جاء فى كتابى «السلوك» للمقريزى و«بدائع الزهور» لابن إياس، بأن دور الشيخ أبى السعود كان هو التوعية الدينية، والحث على الجهاد فى سبيل الله، حتى أنه لم يرجع إلى القاهرة إلا بعد رحيل الصليبيين عن دمياط، بعد أن عقدوا صلحاً مع الملك الكامل.

ولا يستهان بدور التوعية الدينية التى قام بها الشيخ أبو السعود فى مثل هذه المعارك القائمة أساساً على العقيدة والدين بين الطرفين، فهو دور واسع المدى، عميق الأثر فى الحرب الحديثة والقديمة معاً، ولا يستطيع أن يقوم به إلاَّ مَنْ أوتى القدرة على الإقناع بالحجة والدليل، وهو ما يعرف حديثاً برفع الروح المعنوية لدى القوات المتحاربة كجبهة مقاتلة تستطيع أن تستعيد الأرض، وتصون العرض.

أما كيف كان هذا الرجل الصالح؟ وماذا عن جهوده فى إعلاء كلمة الإسلام؟ فقد أفاضت فى ذلك كتب السير والتراجم، ومنها «الكواكب السيارة» لابن الزيات، و«الطبقات الكبرى» للشعرانى، و«تحفة الأحباب» للسخاوى وغيرها من كتب سجلت أن الإمام الرفاعى مؤسس الطرق الصوفية بالعراق بشر بمجيئه، وبأنه سوف ينشأ على العبادة والمحافظة على تعاليم الإسلام، وبأنه سيكون من المنافحين المدافعين عن هذا الدين.

وأما عن مكانته فى القاهرة ومصر عامة فيذكر ابن الزيات فى كتابه «الكواكب السيارة» أن إمام القاهرة أبا العباس القراباغى كان إذا سُئل من أتباعه ومريديه وعن الذى سيحل محله فى قيادة السفينة من بعده؟ أجاب قائلا: «ليس فى الجماعة من يجلس مكانى إنما يجلس مكانى رجل يأتى من العراق من بلاط واسط. فيدخل هنا ويصلى صلاة الجماعة. ويجلس بهذا المكان، ويأخذ العهد ويربى المريدين لدين الله على الإيمان والتقوى».

وقد صدقت نبوءة كل من الإمام الرفاعى والإمام القراباغى، فما إن مات الأخير، ونظر أصحابه وأتباعه إلى مَنْ سيخلفه، حتى جاء هذا الرجل الصالح من العراق ومعه أصحابه، ليؤذن آذان الظهر داعياً الحاضرين إلى الصلاة. وليكون هو الإمام الصوفى المنتظر.

وعن آثاره وأخباره يحدثنا الشعرانى فى طبقاته الكبرى بأن الشيخ أبا السعود كان من أجِلاَّء مشايخ مصر، وعظماء أئمتها، وأن الملك الكامل وكذا السلطان نجم الدين الأيوبى كانا يسعيان لزيارته فى زاويته بباب القنطرة ـ ومكانه الآن باب الشعرية ـ كما كان الأعيان وكبار رجال الدولة يسعون إليه طلباً لعلمه وفضله، وتبركاً به كرجل من الصالحين.

ومن مأثور حديث الشيخ أبى السعود هذا القول: «كيف يصح لعابد أن يخلص فى عبادته وهو غير عالم بآفاتها، فإن الهوى روحها. والشيطان خادمها، والشرك مركون فى طبعها، ومنازعة الحق والاعتراض عليه مجبول فى حلقتها، وسوء الظن وما ينتج عن الكبْر وقلة الاحترام سِيمتُها، ومحبة الصيت والاشتهار حياتها.. فكيف يقرب عبد من مولاه عز وجل مع بقاء هذه الآفات ومصالحتها؟!».

رحم الله هذا الرجل الصالح.

* * *